المتجلّي

بقلم: حازم ويفي

obeikan.com

قالت لي: «أنت لا تؤمن بي مثلما تؤمن به، بينما أؤمن أنا بك فقط ولا أحد سواك».

كنا نسبح في بحيرة فضية وحدنا، وثالثنا القمر يسمع تحاورنا في صمت، ويلقي بضوئه الساحر على وجهها، فينير أكثر، ويزيدها فتنة... نظرت إليه طامعًا أن يجيب عنّي: ها هي الآن تتحدث عن إلهي وإلهك! ولكنه سكتْ تاركًا لي تحديًا كبيرًا في الإجابة.

أحبها بشدة، ودومًا ما يضعنا الحب في مأزق، كنت أحدثها عن القدير وكيف أن له تقديرًا في أن يجمعنا معًا: أنت من مدينة بعيدة وأنا من مدينة أبعد، أنا من طرف الكرة الأرضية وأنتِ من الطرف الآخر، وقلوب البشر بين يدي الرحمن يقلبها كيفما شاء.

«الأقدار من صنع الإنسان، نحن من نصنع أقدارنا».

قالتها وهي تنظر في عيني مباشرة، ثم أضافت في دلال:

«الصدفة السعيدة هي التي جمعتنا معًا، أحببتك من أوّل لحظة نظرت فيها إلى عينيك، وقلبي ليس بين يدي أحد.. وإن كان، فإنه بين يديك أنت!»

ألجمتني مرةً أخرى، لم أعرف هل أفرح لاعترافها بحبها لي بتلك الكلمات الساحرة أم أحزن لأنها لا تفهمني؟! يورطنا القلب في أمور لا طاقة لنا بها، كنت قد حدثتها من قبل عن تجلي الله للجبل في قصة النبيّ موسى، وكيف أنه انهار وهوى متحوّلاً إلى صورته الأصليّة، أعجبتها القصة التي كانت تسمعها بفضول طفلة ولكنها لم تقتنع بمغزاها!

-»ربما أحببت فيك حماسك وقناعتك ولمعان عينيك وأنت تتحدث عن تلك الروحانيّات»!

-وما الحب إلا واحدًا من أهم «تلك الروحانيات» التي أتحدث عنها، أَحَبَّ موسى ربه فأطاعه، وأحب عيسى مولاه فسار عكس الجموع، وأحب إبراهيم نور خالقه

فألقى بنفسه في النار ذاتها، ورأى محمد البرهان يقينًا فصدّق وصَدَق...

-»أستطيع أن أشعر بك ولكني لا أفهمك»!!

-»تشعرين لأنك تحبين»

نَظَرَت هي إلى القمر تلك المرة، شَرَدَتْ للحظات، أراه منعكسًا في عينها فزادها بريقًا وزادني لوعة، أرى الله يتجلى في صُنعِه لعيّنيها، زرقاء تنسجم مع الكون من حولنا، بها هدوء وصمت يجعلني أذوب، أصل إلى قلبها من هنا: من العيّنين، وأرى فيه خيرًا وحُبًّا كثيرًا للعالم.

قاطعتني: «يبدو القمر أقل جمالاً إذا نظرت له من خلال التلسكوب، هل جربت؟»

رددت بالنفي.

قالت دون أن تبعد عينيها عن السماء:

«قطعة الزجاج تلك تصنع دومًا حائلاً بيني وبينه، نظرت إليه كثيرًا: مئات، بل آلاف المرات، بدافع الفضول والاستكشاف، هل تعلم أنها ربما تكون المرة الوحيدة التي أنظر إليه بالعين المُجردة؟ أنظر إليه وأطيل النظر؟!»

- «رأيتُ ذلك.. ربما هو أيضًا يشعر بكِ، ربما هي المرة الوحيدة التي يراكِ فيها تنظرين إليه نظرة المُحب وليّس نظرة المُدقق»!

نَظَرْتُ إلى القمر، تبسم لي، تجلّى الله مرة أخرى في ابتسامتِهِ، قلت بعفوّية: «الله».

خفضتْ رأسها في هذه اللحظة، ونظرتْ ناحيتي، وقالت: «جميل».. ثم رفعت رأسها ناحية القمر مرة أخرى: «كم هو جميل!».

اقترب الفجر، وكنا قد خرجنا من البحيرة، وجلسنا في مكان قريب نرى منه الجبال على مسافة بعيدة، تكاد تلامس السحب، تريد أن توقفها.. هل تغار الجبال من السحب لأنها حرة؟ ولكن السُحُب أيضًا ليست حرة تمامًا؛ الرياح تحرك السحب، وتتحكم في اتجاهها وسرعتها بل وشكلها، ويبدو المشهد كلُّه أمامي الآن كمطاردة بين الثابت الذي لا يملك حركته، وبين المتحرك الذي لا يملك حركته أيضًا، حتى الرياح، الرياح نفسها يُحركُها مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بها، هي أيضًا ليست حرة تمامًا، منظر

مبهـر، انقطعـت أفـكاري الجاريـة مـع السـحاب، بـدفء سرى في جسـدي، فقـد ألقـت برأسـها عـلى كتفـي وأشـارت إلى النجـوم في السـماء، وظلـت تحـكي في شـغف عـن نظريـة نشـأة الكـون والانفجـار العظيـم، ذلـك الرَّحِـم الـذي خـرج منـه العـالم بأكملـه، هـل قَـرَأَتْ أفـكاري كي تناقضهـا؟

لمـاذا يكـون لديهـا دومًـا الجـرأة لتجاهـر بأفكارهـا بهـذه الطريقـة المباغتـة، بينـما لا أفعـل أنـا؟!

كان القمـرُ قـد ذَبُـلَ، وغلبهـا النعـاس، تَرَكَـتْ رأسـها لكتفـي، وبـدأت خيـوط الإشراق تسـبح في السـماء لـكي تعلـن بدايـة يـوم جديـد مـن أيـام اللـه.

أغْلَقَـتْ عينيهـا واستسـلمت للنـوم حتـى تراخـت أعصـاب الجسـد وانتظـم النبـض وسـكنت الجفـون، نظـرت إلى السـماء ورأيـت اللـون الأصفـر يصبـغ اللـون الأزرق تدريجيًّـا فارضًـا سـطوته عـلى السـماء والأرض، هـدأت الجبـال واستسـلمت لقَدَرِهـا، وتركـت السـحب نفسـها للريـاح تأخذهـا أينـما يشـاء المَلَـك، تـراءت لي اللوحـة كاملـة الإبـداع، وتجـلى اللـه لي مـرةً أخـرى.

«قلت لك إن ما أعجبني فيك هو يقينك بتلك الروحانيات»

سمعتها تقول.